

المعجزة الخالدة للرسالة الخالدة

على صاحبها أطيب الصلوات وأزكى التسليمات

د. محمد قمر على زیدی ☆

إن مادة "ع ج ز" تدل على "الضعف" (١) والإفعال منها "الاعجاز"
قال الزهري: قلت: ومعنى الإعجاز: الغوث والسبق، يقال: أعجزني فلان [أي: فاتني، وقال الليث: أعجزني فلان] إذا عجزت عن طلبه وإدراكه (٢)
وقال: "....." وأما الإعجاز فهو الغوث، ومنه قول الأعشى:
فذاك ولم يعجز من الموت ربه و لكن أنه الموت لا يتألق (٣)
وفي القاموس: وأعجزه الشئ: فانه، وفلانا: وجده عاجزا، وصيره عاجزا، والتعجيز: التشييط، والنسبة إلى العجز، ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة (٤)

ومن هنا يفهم أن إعجاز القرآن العظيم هو حيث عجز جميع الناس عن الإتيان بمثله. ثم اختلف الناس من القديم في وجوه إعجازه، وقد ظهر هذا الاختلاف عندما "ظهر علم الكلام مع ظهور المعتزلة. وبدأ فيه الكلام على مسألة الإعجاز كما ظهر في القرن الثالث من الهجرة. فقد ألف فيه كتاب [الدين والدولة] في الدفاع عن الاسلام وإثبات النبوة للرسول العربي ﷺ، ومؤلفه هو علي ابن زين الطبري (٥) مولى المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ) أورد فيه براهين على نبوة رسول الله ﷺ، واختص الباب السابع منه للقول بأن القرءان هو معجزة النبوة..... (٦)

☆ الاستاذ المساعد، بقسم اللغة العربية، جامعه بنجاب

وقد تكلم في هذه المسألة أبو الحسن العشري (٣٢٤هـ) وضاعت أكثر كتبه ولم يصل إلينا منها إلا كتاب "مقالات الإسلاميين".

ومن أشهر المتكلمين الذين بحثوا مسألة الإعجاز ، محمد بن يزيد الواسطي (٣٠٦هـ) وعلى بن عيسى الرماني (٣٤٨هـ) له كتاب "النكت في إعجاز القرآن" (٧) وهو رسالة صغيرة وهي في الأصل جواب عن سؤال وجه [للمؤلف عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وهذا الجواب يتلخص في أن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات: تركب المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتعدي للكفاية، والصرفة، والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجز [أو أحمد بن محمد الخطابي (٣٨٨هـ) صاحب كتاب "بيان إعجاز القرآن" (٨) [قال فيه: إنما هاء القرآن معجز وأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني من توحيد وتحليل وتحريم..... إلخ ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتنسق، وأمر تعجز عنه قوى البشر ...] وأبو بكر محمد الباقلاني (٤٠٣هـ)، له كتاب "إعجاز القرآن" (٩) الشهير ومحمد يحيى بن سراقه (٣١٠هـ) والشريف المرتضى (٤٣٦هـ) وممن جعلوها جزءاً من كتبهم التي وصلت إلينا ابن حزم (٤٥٦هـ) في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" (١٠) والإمام الغزالي (٥٠٥هـ) في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" والقاضي عياض (٥٤٤هـ) في كتابه "الشفاء"

وتأريخ هذه المسألة والذين تكلموا فيها فالفوا ودونوا طويل ، لا تصلح مجل هذه العجالة أن تحيط بذكر أسمائهم وآرائهم ، وربما كان من إعجاز القرآن العظيم أن الناس ما زالوا حيارى يتطرفون الكلام في إعجازه ، فمنهم من

يرى الإعجاز في فصاحة كلمته و بلاغة أساليبه ، ومنهم من يراه في روعة كلامه و جماله ، ومنهم من يراه في قصصه و أخباره ، ومنهم من يراه في إخباره عن المغيبات والأخبار المستقبلية وما إلى ذلك. (١١)

و مهما يكن من أمر فإن القرآن العظيم هو صورة و فاء الوعد السماوي الذي وعد الله به آدم عليه السلام عند هبوطه إلى الأرض ، و هو هدى كامل يأخذ بالصنيع طالبه المخلص ، و يوصله إلى السعادة و النجاح و هو بشرى للبشرية الجمعاء ، ينبغى عن الإنسان الحزن على ما مضى ، و يضمن له الأمان عن الخوف سيأتى . قال الله تعالى : ﴿ اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١٢).

وما زال الإنسان محتاجا إلى الهداية والإرشاد ينزلان من السماء من حين إلى حين ، وما زالت عقلية تنمو ، وما زالت فطنة تتطور ، وما زال ذكاؤه ينضج حتى أراد الله سبحانه و تعالى أن تشيع رحمته فى العالم يشتمل فضله البر و البحر و أراد أن يخرج البشرية من ظلمات الجهل ، و المعنوية ، و الضلال ، إلى نور العلم و الأنادة و الهدى ، ﴿ فبعث فى الاميين رسولا منهم ، يتلوا عليهم آياته ، يزكّهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة ﴾ (١٣) فجعله خلاصة الإنسانية ، و عصارة ذهن الأنبياء و الرسل السابقين ، فأعطاه الرسالة الكاملة ، و النبوة الشاملة ﴿ يا ايها الناس إني رسول الله عليكم جميعا ﴾ (١٤) ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ (١٥) فكتب له شهادة كبرى و أبشيره الإنسانية بشاره عظمى ، و حذر به من خالف أمر أو مال عن طريقه و أولى على الذين اتبعوه فضله العظيم و كرمه العميم ، و جعلهم بغاية لطفه و تكرمه مستحقين له ﴿ يا ايها النبى إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا ، و داعيا إلى الله بإذنه و سراجا منيرا ، و بشر المؤمنين بأن لهم من فضلا كبيرا ﴾ (١٦)

و قدّر لنبوته و لرسالته الخلود ، فأيده بالمعجزة الخالدة ، لتظل معها غير
العصور ، و لتبقى بقاء الأعمار و الدهور ترشد المؤمنين المطيعين و تتحدى
المنكرين المعاندين ، فيحذب أنظارهم و يلفت أفكارهم لعالمهم ينتهون ، و
يرجعون إلى سبيل ربكم فينجحون .

هذه المعجزة الخالدة لسيد الأنام صلى الله عليه وسلم بدع من الرسل ، قال الله تعالى :
﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم ﴾ (١٧) فقد
جرت سنة الله سبحانه و تعالى بإرسال المرسل لهداية الناس و تأييدهم بمعجزات
تدل على صدقهم و كونهم مبعوثين حقا ، و كان من المفروض أن يكون هذا
الدليل خارقا للعادة ، حيث يعجز عامة الناس عن الإتيان بمثله ، ولذلك يسمى
معجزة : و من هذه يتم الدليل و يصح التحدى .

و يستنبط من نصوص القرآن الكريم ، قد تقرر عند العلماء بتتبع تواريخ
الأنبياء بأن هذا التأييد لدعوة الأنبياء كان من جنس تلك العلوم و الفنون التي
وصلت أقوامهم القمة ، فلما ظهر على يد رسول من رسل الله من ذلك
الجنس لكنه فان كل ما كان من صنع الناس ، تبين بأنه فوق طاقة الشر ، و يعجز عن
الإتيان بمثله جميع الناس . و هذا هو الإعجاز ، فيكون خارقا للعادة بإطفاء النار
المسلتهمة و تصيرها بردا و سلاما ، كان أمرين خارقين للعادة . يقول الدكتور حفنى
محمد شرف فى معجزة موسى عليه السلام أنه "حين بعث إلى قومه الذين اشتهروا
بالسحر ، و ضربوا فيه بسهم و افر يشاء الله أن تكون معجزته من قبيل الغريب
العجيب" ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ ، و نزع يده فإذا هي بيضاء
للناظرين ﴿(١٨)﴾ ثم يقول الدكتور حفنى محمد شرف فى معجزة عيسى عليه
السلام أنه حين أرسل إلى قوم كانت لهم شهرة فى بإذن الله شاء عز اسمه

أن يجزى على أيدي عيسى إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء بإذن الله ، و بعد ما ضرب هذين المشلين ، علق عليهما بقوله : وقد يقال : إن المعجزات قد أتت حقيقة من جنس ما شاع و ذاع و لكنها امتازت بزيادة بالغة و فضيلة تقصر دونها الهيمم ، فعصا موسى تلقف ما كانوا يأفكون ، و حكمة عيسى فاقت جميع الحكم حين يحي الموتى بإذن الله .

إذا علمنا هذا أدر كنا قيمة النفاسة في معجزة محمد . عليه الصلاة والسلام . وكيف كانت وهي القرآن الكريم حجة على رسالته ، و برهانا على صدق دعوته ، وقد بلغت غاية الفصاحة و نهاية البلاغة بين قول لا يخلون في جملتهم من شاعر فحل أو خطيب مصقع .

و من هنا فقد كان القرآن الكريم جامعا لفنون البلاغة ، جاويا لأطراف البيان و الفصاحة ، محكما في نظمه ، حتى إنك تحسب ألفاظه لجمالها و روعتها منقادة لمعانيه ، فإذا ما تغلغت فيه و جدت معانيه منقادة لألفاظه ، فإذا رجعت البصر مرة و مرة فإنك ستظل مترددا بين انقياد معانيه لألفاظه ، و انقياد ألفاظه لمعانيه حتى تؤمن أخيرا بأنك تقرأ كلاما ليس من كلام البشر . (١٩)

وقد ظهرت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمور كثيرة ، يعجز عن الإتيان بمثلها الناس ، و تعد من بين معجزاته مثل شق القمر ، انفجاء الماء من بين أصابع يده الكريمة ، والبركة في اللبن ، حيث شرب نفر كثير من قدح و احد واللبن كما كان ، والبركة في الطعام كما حدث خلال أيام غزوة الأحزاب و غيرها كثيرة عديدة ، وهي مروية منقولة في كتب السيرة والخصائص والتاريخ ، لكن جميعها كانت مؤقته و كانت آثارا مباركة لذات رسول الله ﷺ ، أما المعجزة الحقيقية لرسالته ﷺ فهي القرآن الكريم ، و مما يدل على ذلك أن القرآن

العظيم ما زال طيلة نزوله يصدق رسول الله ﷺ و يحقق دعوته و يتحدى منكره و معانده ، فبدأ التحدى بإتيان الكلام مثله ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ (٢٠) فما استطاعوا أن يأتوا بمثله و أنى لهم هذا ؟ هل يمكن للعبد أن ينهض إلى درجة الربوبية ؟ و هذا القرآن كلام الله العزيز العلام فأنى لعبد من عباد ه أن يصنع مثل كلامه ؟ ولما لم يفهم كثير منهم الحقيقة وما زالوا في عما هم يعمهون ، يبههم على سوء فهمهم و فساد عقلهم ، و لفت إلى الحقيقة أذهانهم فقال : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مقتريات و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (٢١) ففي هذا التنزل توسيع المجال لهم و ترخيص لهم ، و كل هذا ليتبين لهم عجزهم ، و نتيجة لذلك يتضح لهم كون القرآن كلام الله العلي المتعال ، و قد تركوا في هذا الترخيص و التوسيع ، ولكنهم لم يجدوا ملكة تعينهم سورة من القرآن العظيم حيث عرضت سورة الكوثر للتحدي و هى تشتمل ثلاث آي (٢٢)

ففيه تبيكت للمعاندين و تحذير شديد لهم كما فيه تبشير للنبي الكريم و تثبيت لقلبه المبارك ، قال الله سبحانه و تعالى : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله و ادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا و لن تفعلوا فاتقوا النار التى و قودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين﴾ (٢٣)

يقول الدكتور حنفى محمد شرف فلما ظهر عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة لزمهم الحجة لزوما و اضحا ، و انقطعوا انقطاعا فاضحا و الضمير في قوله تعالى : (مثله) يرجع في كل الآيات إلى المنزل لا إلى المنزل عليه حتى لا يكون هنا ك تضيق في التحدي و مقتضى التنزل من الكل إلى

العشر، و من العشر إلى الواحدة ، التوسيع فيه و أما أنه لم يعارض ، فلأنه لو عورض لشاع لتوفر الدواعي إلى نقله، وعدم الصارف عنه والعلم بذلك قطعي كسائر القطعيات لا يقدح فيه احتمال أنهم عارضوا ولم ينقل إلينا كما ننع كعدم المبالاة وقلة الالتفات و الاشتغال بهمام الأمور، و أقول كما قال الفاضل التفتازاني في شرح المقاصد: أن (رسول الله) ﷺ تحدى بالقرآن الكريم و دعا إلى الإتيان سورة من مثله مصاقع البلغاء والفصحاء من العرب وغيرهم مع كثرتهم كثرة حصي البطحاء و شهرتهم بغاية العصبية و الحمية الجاهلية و تهالكهم على المبالاة و المبارقة و ركوب الشطط في هذا الباب فعجزوا حتى اثروا المقارعة على المعارضة بذلوا المهج و الأرواح دون المدافعة فلو قدروا على المعارضة لعارضوا، و لو عارضوا لنقل إلينا لتوفر الدواعي و عدم الصارف. (٢٤)

فمعجزة رسول الله ﷺ هي القرآن الحكيم و هو يدعوا الناس إلى سبيل ربهم و يبشر متبعيه و يعمن لهم الصلاح و النجاح و السعادة و يحذر معانديه و يخوفهم من العذاب و سوء العقابة فبكلامه يريده هداية الناس أجمعين، و يهدف إلى فوزهم و نجاتهم و لذلك يحمل بين دفتيه علوم الأولين و الآخرين.

قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: "و قد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع ما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية و بسطوا كل ذلك بسطا..... على أن هذا و مثله إنما يكون فيه إشارة و لمحة و لعل متحققا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن و أحكم النظر فيه، و كان بحيث لا تعوزه أداة الفهم و لا يلتوي عليه أمر من أمره..... لا استخرج منه إشارات كثيرة تؤمي إلى حقائق المعلوم و إن لم تبسط من أنباء ها، و تدل عليها و إن لم تسمها و أسمائها بلى و إن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض

معاني القرآن و الكشف عن حقائقه و إن فيها لجاما و درية عن يتعاطى ذلك
يحكم بها من الصواب ناحية ، و يحرز من الرأي جانبا و هي تفتق لها الذهن و
تؤاتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه و تخرج له البرهان و إن كان في طبقات
الأرض و تنزل عليه الحجة و إن كان في طباق السماء.

ولا جرم أن هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها و اتصال آثارها الصحيحة
بالنفوس الإنسانية إلى غاية و احدة و هي تحقيق الإسلام ، و أنه الحق الذي لا مريبة
فيه و أنه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، و أنه لذلك هو الدين الطبيعي للإنسانية
و سيكون العقل الإنساني آخر نبي في الأرض ، لأن الذي جاء بالقرآن كان آخر
الأنبياء من الناس ، إذ جائهم بهذا الذي الكامل و لا حاجة بالكمال الإنساني لغير
العقول ينه إليه بعضها بعضا ، و من لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض .

وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم و إلى تمحيصها و غايتها على ما
وصفناه و ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٢٥) و لو جمعت
أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالى ﴿فِي الْأَفَاقِ وَ فِي
أَنْفُسِهِمْ﴾ هذه آفاق و هذه آفاق أخرى ، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر
بداهة فليس يصح في الإفهام شئ.

ذلك و إن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطئ الناس في بعض
تفسيره على اختراق العصور ، لضعف و سائلهم العلمية ، و لقصر حبالهم أن تعلق
بأطراف السماوات أو تحيط بالأرض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه
فكلما تقدم النظر و جمعت العلوم ، و نازعت إلى الكشف و الاختراع
و استكملت آلات البحث ، ظهرت حقائقه الطبيعة ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال

عقل الإنسان يقطع إليها حتى كأن تلك الآلات حينما توجه لآيات السماء والأرض توجه لآيات القرآن أيضا ﷺ والله غالب على..... ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢٦) ذلك هو الأمر في العلوم الأولى ثم الله ينشئ النشأة الآخرة. (٢٧) هذا هو القرآن ، وهو معجزة خاتم الأنبياء ﷺ الذي به تم قصر النبوة و كمل الدين الإلهي و تمت نعمة الله على العباد ، فشملت رحمته جميع الناس ، فكان لا بد للمعجزة التي تؤتي لتأييد نبوته و رسالته أن تكون مختلفة تماما من التي أعطيتها الأنبياء السابقون ، قال الشيخ محمد عبده : و كان السائد في الديانات السابقة أن تكون الآيات الدالة على صدق الأنبياء حسية لأنها كانت لا تخاطب العقول لأن العقول لم تبلغ بعد درجة إلا يما تدركه حواسه تمام الإدراك ، فالنار تتحول إلى برد وسلام ، والعصا تنقب ثعبانا ، والجبل يرتفع فوق الرؤوس ثم يعود إلى مكانه ، والبحر ينقلب إلى شقين كل شق منهما كالطود العظيم ، والصخرة تنشق فتخرج منها ناقة ثمود ، و عيسى يرى الأكمة و الأبرص و الأعمى و يحيى الموتى بإذن الله ، وهكذا كانت تتوالى المعجزات الحسية المادية لتأييد الرسالات بد لا من أن تتوالى الأدلة العقلية و البراهين المنطقية ، والشواهد العلمية لأن الله ادخرها إلى أن يبلغ العقل البشري النضج والتمام فتهبط عليه رسالة الإسلام.

و قد جرت على يد محمد ﷺ وعلى آله ، بعض المعجزات المادية ليعتبر بها من تخلف عقله عن إدراك المعنويات ، ولكن معجزة آخر الأنبياء عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام كانت معجزة عقلية خالدة ، ليست محدودة بزمان ولا مكان ، و ليست مقصورة على من يشاهدون المعجزات المادية و حدهم في فترة محدودة ، وهم قلة محدودة و هم غير حجة على من لم يشاهد أمثال هذه

المعجزات.

أما معجزة الإسلام المعنوية الخالدة التي يعرضها الله على جميع العقول في جميع العصور فهي "القرآن الكريم" وهو معجزة قائمة على النظر العقلي، والتدبر الفكري والاستدلال العلمي، مهتما اختلقت الصور وتعددت الغايات. (٢٨)

فالقرآن العظيم هو معجزة إمام الأنبياء وختم المرسلين ولما كانت رسالته قائمة عليها وهي خالدة سرمدية مستمرة إلى أن يرث الله الأرض وما فيها، كان لا بد لمعجزتها أن تبقى وتدوم عبر العصور، فلذلك ضمن الله سبحانه وتعالى محافظة القرآن الكريم وصيانتة فقال عز من قائل: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (٢٩)

و من لطائف القرآن العظيم وأمارات إعجازه أنه يعجب الناس غاية الإعجاب، فما زال الناس منذ نزوله يتعجبون من عجب أثره، يتحIRON لروعه وجماله، فمن موطن مطيع محب له، ومن معاند معاد مسحور بأثره العميق منذ بداية نزوله ما زال الناس يقفون أمامه حيارى مبهوتين، فالذين يعترفون بإعجازه يعتبرونه معجزة عظيمة لخاتم النبيين ﷺ لا يكادون يتفقون على قول أو رأي يصفون به القرآن العظيم، ولعل هذا هو إعجازه، فكل واحد يحس فيه بما هو فوق طاقة البشر، أو يحس فيه ما هو خارق للعادة، فمنهم من يرى إعجازه في كلماته ومنهم من يقول: إن إعجازه في أساليبه، ويقول آخر: إن إعجازه في بلاغته، وأرجع كثير منهم إعجازه قصصه وأخباره، في حين ذهب عدد من العلماء إلى أن إعجازه في علومه وأخباره. عن الزمن السابق كان أو عما هو لاحق. وكذلك كان الإخبار عن الأعيان الظاهرة أو عن تلك المشاعر والعواطف التي هي سرائر

النفس لا يعمها إلا الله العليم الخبير.

و الحقيقة أن القرآن العظيم يشمل جميع هذه النواحي والجوانب، و فوق ذلك كثيرا، ولا تزال كثرة كاثرة من ظواهر الإعجاز القرآني مخفية غير ظاهرة حيث لم تصل إليها يد التحقيق، ولم يلتفت إليها نظر المهتمين بهذا الشأن، كلما يصل العالم المجتهد المحقق إلى نتيجة صائبة أو فكرة ثاقبة، أو يتبين له خلال دراسته و تحقيقه الحق، و تتراءى له الحقيقة يجد القرآن العظيم قد أشار إليها قبل قرون مع أن القرآن الكريم ليس بكتاب العلوم.

ولم ينزل ليعلم الناس الفنون، إنه رسالة الله إلى أهل الأرض، ليعدوا في حياتهم هذه، و تلك في الآخرة، فالفوز و النجاح مضمنان في العمل به، و في الامتثال و الانتهاء عما نهى عنه.

ولما كان القرآن العظيم أعظم معجزة لرسول الله ﷺ فإن أعظم إعجازه خلق أمة جديدة من تلك الأمة العربية التي كانت تعيش عيشة بدوية متأخرة منعزلة عن أهم المجتمعات البشرية آنذاك، و لم تكن تعد من غير و لا نفير لكنها عند ما وقفت أمام نصوص القرآن تستنطقها و تستخرج جواهر معانيها، و تستنبط لآلى مفاهيمها معجبة بها محبة لها، أخذها القرآن الكريم بإصبعها و أوصلها إلى قمة العلا و لفت فيها روحا جديدة، و ألهمها العزة و المنعة و الوقار، فما شئت في التاريخ عزيزة النفس، منيعة الجانب، قوية الروح، جليلية الشأن، فبرز فيها أنمة هداة و نشأ فيها علماء أعلام و انتجت الأمة قوادا عظاما و رجالا بارزين في كل مجال من مجالات الحياة.

و كل هذا لأجل القرآن العظيم فإنه كان أخذ بالبابهم و أسر عقولهم و سحر نفوسهم حتى سادهم سيادة كاملة شاملة، فيه يستمرون، و معه كانوا يقفون

فجعلوه دستور حياتهم وإمام أفكارهم وهاديهم ومرشدهم وهذا هو أجل أنواع الإعجاز القرآن العظيم.

إن القرآن الحكيم عند ما يتناول موضوعاً أو يشرح أمراً فإنما يجعل ذلك بأسلوب لا غاية وراءه، ولا بلاغة فوقه وإن كانت قصة أو حكاية واقتضتا الأسلوب القصصي، فلا تعيب الحقيقة في سرد القصة، وإذا كان الموضوع حكماً من الأحكام لا يفوته جمال الأسلوب وروعة البيان وسحر الكلام، "فهذا هو القرآن الكريم، تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة، وتراه في معمة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنضير وتهويل وتعجب وتبكيث وتأنيث، وصدق الله العظيم إذا يقول في وصفه: ﴿تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٣٠) الآية (٣١).

أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والإمام الترمذي والدارمي، كلاهما في سنينهما والطبراني في المعجم الكبير من علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إن أمتك مختلفة بعدك، قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: كتاب الله تعالى، به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، مرتين، قول فصل وليس بالهزل، لا تختلف الألسن، ولا تفتني أعاجيبه، فيه نبأ ما كان قبلكم وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم). (٣٢)

وأخرج الإمام الحاكم في المستدرک عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: (إن هذا القرآن مأدبة الله فأقبلوا ما دبة ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به و

نجاة لمن تبعه، لا يزيع فيستعجب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد..... الحديث (صححه المنذري. (٣٣)

هذه هي معجزة النبي الخاتم الخالدة لرسالته الخالدة، فما زالت إلى يومنا هذا منهلا صافيا طريا، وستظل كذلك أن تقوم الساعة.

يقول الأستاذ حسن ضياء الدين كمتري: جليلة كثيرة هي مزايا القرآن، وملاكها أنه هو الرسالة الإلهية ومعجزاتها الخالدة، وهو الدعوة وبرايتها الدامغة، أجل! إنه الشمس وضيائها، لا غرو! فقد اتحد فيه الدليل والمدلول عليه أقوى من اتحاد الروح بالجسد، فالقرآن هو نفسه الوحي الإلهي المنزل، وهو الخارق المعجز للخلائق الدال على إلهية مصدره فشاهد صدقه في عينه لا ينفك عنه مهما توالى العصور وانقضت الدهور! يقيم للأجيال المتعاقبة براهين دامغة لا تجد الأبواب القويمة والأذواق الرفيعة والفطر البرينة سبيلا إلا سبيل الإيمان به والتسليم بنيوته مبلعة محمد ﷺ. (٣٤)

وقال: "وأنت ترى أن الأمة الإسلامية ما تزال في تاريخها القديم والحديث ترقى معارج المجد بقدر علمها بكتاب الله المجيد وتخط عنها بإهماله والإعراض عنه لذا فإن المسؤولية عليك وعلى الأمة جمعاء مسئولية كبرى لا يقبل فيها عذر لمعتذر، كيف وقد ظهرت لها الحقيقة ظهور الشمس في رابعة النهار!؟ وقد ذكرنا الله بهذه المسؤولية بقوله جل شأنه (٣٥)

﴿وإنه لذكرك ولقومك وسوف تسألون﴾ (٣٦)

الهوامش

- ١- معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص: ٢٣٢، مطبعة الإعلام الإسلامي طهران.
إيران/١٤٠٤ هـ
- ٢- تهذيب اللغة ج ١، ص: ٣٤٠، وانظر لسان العرب (ع ج ز) ج ٥، ص: ٣٦٩-٣٧٠
- ٣- ديوان الأعشى: تحقيق د/محمد حسين، والبيت في اللسان (عجز، أبق)
- ٤- القاموس المحيط (عجز) ج ٢، ص: ١٨٨
- ٥- ترجمته في إخبار العلماء بإخبار الحكماء
- ٦- فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي، ص ٤٠ وما بعد، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت
- ٧- طبع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" ط، دار المعارف بمصر
- ٨- طبع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"
- ٩- طبع بدار المعارف بمصر، بتحقيق السيد أحمد صقر
- ١٠- ينظر في ذلك "إعجاز القرآن في آثار الدارسين" لعبد الكريم الخطيب و فكرة
إعجاز القرآن لنعيم الحمصي، وإعجاز البياني للقرآن الكريم للدكتور عائشة
عبدالرحمن بنت الشاطي، ط، دار المعارف بمصر
- ١١- قد بسط الكلام في ذلك الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في "معترك الأقران في
إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي ط، دار الفكر بمصر
- ١٢- البقرة: ٣٨ - ١٣ - آل عمران: ١٦٤
- ١٤- الاعراف: ١٥٨ - ١٥ - الأنبياء: ١٠٧
- ١٦- الاحزاب: ٨٥ - ١٧ - الاحقاف: ٩
- ١٨- الشعراء: ٣٣-٣٢
- ١٩- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، للدكتور حفي محمد شرف. المجلى
الأعلى للشؤون الإسلامية الجمهورية العربية المتحدة، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م
- ٢٠- الطور: ٣٤ - ٢١ - هود: ١٣

- [illegible]